

الأسرى الفلسطينيون والسيادة على الزمن

حسام شاهين، فلسطين

إن الزمن ولغة الزمن في أدب السجون هو الزمن ذاته ولغته في كل مكان إذا ما اعتمدنا "الساعة" أداة قياس وحيدة له، غير أن الزمن في الأسر يفقد قيمته الرقمية، ويتحوّل إلى شعور حسي ووعي عميق بالذات وبالآخر، ويصبح أكثر ثقلًا على كاهل الأسير انطلاقاً من تعدّد المسؤوليات الصغيرة والكبيرة التي تتغيّر باستمرار بفعل المواجهة المستمرة مع المحتل حول تفاصيل الحياة اليومية. تتناول هذه المقالة مفهوم الزمن بين قيد الثنائية وإمكان التجاوز في أدب الأسرى، وتهدف إلى التعرّف على ثنائيات زمن السجن في حياة الأسير الفلسطيني في محاولة لإجابة سؤال دائم: ما هي أزمنة السجن، وما هي انعكاسها على حياة الأسير الفلسطيني من مختلف جوانبها، بما في ذلك الجانب الأدبي؟ تعتمد هذه المقالة على التجربة الشخصية للأسير كمادة أصيلة تضيء على الثنائيات الزمنية التي يعيشها الأسير الفلسطيني وهو يستكمل مسيرة نضاله الفردي والجماعي لأجل قضيته الوطنية قبل السجن، وفي السجن، وبعد السجن.

صحيح أن الزمن مقولة فلسفية قد تتقاطع بشكل أو بآخر مع الزمن في الأدب الذي قد ينشطّ إلى أزمنة متعددة (فلكية، وتاريخية، ونفسية، وفيزيائية، وفلسفية...). ومع توالي الحضارات انحصر الزمن في ثلاثية الماضي والحاضر والمستقبل، أي أنه في خط أفقي، بمعنى أن الإنسان ينطلق لتحديد موقعه الزماني-المكاني من حاضره الذي يعيشه ويحسّه، ويعود بذاكرته إلى الماضي، أما المستقبل فهو بالنسبة له الزمن الغيبي الذي وضعه البشر، من الشعراء وحتى الأمراء، في المرتبة الثالثة. ومنذ بدايات القرن العشرين تجاوز الزمن إشكالياته، إذ إنه لا وجود له إلا من خلال خبرة الإنسان.

قبل الولوج إلى زمن السجن تجدر الإشارة إلى أنه الزمن الذي انبثقت عنه ومنه مأساة الشعب الفلسطيني، وما ترتّب عليها من تصدّعات زمانية ومكانية. وثنائيات الأزمنة عديدة في حياة الأسير الفلسطيني ومنها (المُسْتَعْمَر والمُسْتَعْمَر، الزمن الدائري والزمن المستقيم، الزمن السيكولوجي والكرونولوجي، الزمان والمكان، الزمن السالب والزمن الموجب، زمن الانتظار وزمن الاختيار، الحُب والحرية، القطع والوصل، ثنائية التحول الوظيفي، ثنائية الصحة والمرض، ثنائية القديم والحديث). وإن استعراضنا لهذه الثنائيات لا يعني موافقتنا على وجودها الجامد، دون الأخذ بعين الاعتبار التفاصيل الكثيرة التي تزخر بها المسافة الزمنية الفاصلة بينها. كما أننا لم نذهب إلى

تحليل إشكالية الزمن عند الأسير بقدر ما قدّمنا وصفاً توضيحياً لها، وذلك لمقتضيات المقام في هذه المقالة الموجزة، والتي نعمل عليها كدراسة موسّعة برسم الإنجاز في القريب.

1

ضمن ثنائية المستعمر والمستعمر، سعى الاستعمار الصهيوني منذ بدايته إلى قتل المكان باقتلاع سكانه منه على أمل اقتلعه منهم بمرور الزمن، مراهناً على ذاكرة النسيان، إفراغ المكان من سكانه الأصليين وفق حساباته وأهوائه هو إفراغ للزمن -المكاني من الحياة، وإفراغ للمكان من زمنه الحي، أي من الناس. والاستعمار الصهيوني يخطط منذ البداية إلى تجاوز ثنائية الزمان والمكان الفلسطينيين تمهيداً لملء الفراغ الزماني والمكاني بزمنه هو، زمن الاستعمار الصهيوني الذي أحدث الفراغ بفعل السطو المسلّح والقوة العسكرية، ومن ثم دأب على إنشاء واقع اصطناعي مختلق وجديد على أمل إخفاء معالم جريمته، واقع يحلّ فيه القاتل مكان القتيل ببرودة أعصاب وعنجهية مقززة، معتقداً أنه يستطيع تزوير التاريخ وشطب الذاكرة الجماعية. خلق الاستعمار الصهيوني حقائق جديدة، متجاهلاً أن 77 عاماً من الاحتلال لا يمكنها أن تمحو زمن خمسة آلاف عام من الوجود الفلسطيني العابر بالحياة، وبأن هوية القادم الجديد إلى التاريخ والذاكرة مهما بلغت دقّة فبركتها، لا يمكن لها أن تنفي هوية اللاجئ والمهجّر من وطنه وإن تراكم عليها غبار الوقت. فمن عمق مأساة النكبة توالدت في حياة الفلسطينيين عموماً العديد من الثنائيات المتصارعة، ثنائية اللجوء والعودة، وثنائية الوطن والدولة، وثنائية المقاومة والمساومة، وغيرها الكثير، غير أننا سنعينا هنا إلى تخصيص هذه الكتابة عن الزمن في حياة الأسير الفلسطيني الذي تشطّى إلى أزمنة متباينة متصارعة لا تقتصر على ما أفرزته ثنائية المستعمر والمستعمر، وعلى الأسير أن يجد طريقه في متاهة دهاليزها بأقل الخسائر بالنظر لكونه فرداً أو جماعة يقف في مواجهة مؤسسة صهيونية ضخمة، تتوفر لديها الإمكانيات المادية والنفسية كلّها من أجل تحطيمه وردعه عن الاستمرار في طريق الثورة والمقاومة والتسليم بشرعية الاحتلال.

2

وبين الزمن الدائري والزمن الخطّي، لا شك أن زمن السجن وتاريخه دائريان تماماً، كما كانت حساباتهما في حياة الإنسان البدائية، بينما هما في الواقع يسيران في خط مستقيم إلى الأمام، ففي الحالة الأولى يتحكّم فيك الزمن ويسيطر عليك (كالحلقة المفرغة)، وفي الحالة الثانية أنت من يتحكّم في الزمن ويسيطر عليه (فتكسر الحلقة المفرغة). في الحالة الأولى يتقمّص الزمن شخصية الجلاّد الذي يجلدك بسوط الانتظار الموحج، وفي الحالة الثانية تكون أنت المُتَحكّم بالزمن فتحوّله إلى مورد، وتستثمره لصالحك إذا وظّفت فيه جهودك بصورة منظّمة. وحتى تكسر هذه الدائرة الزمنية التي تحاصرک من كل اتجاه، لا بدّ وأن تطوّر من إحساسك بقيمة الوقت بالاعتماد على رفع منسوب الوعي لديك كأسير، بصفتك الفردية والجماعية من خلال التحالف مع المكتبة، والالتزام الصارم ببرنامج

ثقافي تكون فيه ثلث ساعات يومك على الأقل مليئة بالمطالعة والقراءة والتعلّم ومتابعة نشرات الأخبار والبرامج الثقافية والسياسية مما هو متاح. وكلّما طوّرت من إحساسك بالزمن عبر إنتاجك الأدبي والفكري والتنظيمي والوطني وخلافه، تغيّرت نظرتك إلى المكان بحيث لم يعد ذلك السجن ولا تلك الأسوار يحكما قبضتهما على يومك ويجعلان منه روتيناً خانقاً لجسدك وروحك. ففي الوقت الذي قصّرت فيه التكنولوجيا المسافات الزمانية بين البشر، يُجبر الأسير على العودة إلى التعاطي مع عاداته الحياتية والذهنية البسيطة والقديمة، وهذا الفارق إن كان ضدّ الأسير في جوهره، فإنه بفعل العزيمة والتصميم والإرادة تحوّل جزئياً لصالحه، باعتباره صاحب حق، فأقبل على الدراسة والقراءة بنهم، وراح يطالع الكتب المتاحة في مكتبة السجن ويناقشها مع رفاقه، فطوّر معرفته وانهمك في الدراسة الأكاديمية التي ناضل طويلاً في سبيل تحقيقها وتحسينها خلف القضبان بطرق ووسائل متعددة ومعقّدة تجاوز فيها قيود السجن وهيمنته، فكسر بالعلم والثقافة والفكر حلقة الزمن الدائري المفرغة، وحقق بذلك نصراً ذاتياً لنفسه وشعبه، وحصّن دوره كمقاتل حرية يقف في طليعة شعبه المناضلة.

3

ربما لا نتوقف مطولاً للتفريق بين الزمن الكرونولوجي والزمن السيكلولوجي عادة، لكن زمن السجن لدى الأسير هو محاولة دائمة لتجاوز عجز الإنسان من خلال إخضاعه لأدوات الاعتقال القهرية، فالأسير صاحب القضية الوطنية والمشروع الكفاحي في حالة رفض مستمرة وتحّد متواصل لشروط الاعتقال المصمّمة لجعله يتعايش مع المكان، لأنه بقدر ما يتعايش مع هذا الواقع القهري، بقدر ما يتحول إلى كائن عاجز. ولذلك يقفز الأسير من ثنائية الزمان والمكان المصمّمين لقهره إلى زمنه الخاص، فهو يعيش في السجن، لكنه يعيش مستقلاً عنه، خارجه، متعالياً عليه، وضدّه، فالفقر المادي بحكم الواقع المغلق لا يلغي الغنى الروحي بحكم الإرادة الصلبة. وهذه بالضبط هي الروح الثورية التي نشأ وتربّى عليها، وهي التي تجعله قادراً على تجاوز أدوات القمع بالتمرد على وظائفها وتحطيم أهدافها بأهدافه البديلة، وتطوير أساليب تدريبية عبر هذا "التمرين الإيجابي" على نحو يمكّنه كلّما طال به زمن الأسر من مساعدة غيره على تجاوز أزمته، إن وجدت، بسرعة. وعلى ذلك يتبيّن لنا أن ما تساويه ساعة واحدة في الخارج بمعايير الأنشطة اليومية التي يقوم بها الإنسان بالوحدات الزمنية هو شيء مختلف كلياً وجوهرياً عمّا تساويه الساعة داخل الأسر. فمثلاً يحتاج الإنسان عدة دقائق لشراء رغيف الخبز الذي يشتهيّه، وعدة ثوانٍ من أجل مشاهدة المحطة الفضائية التي يرغب بمشاهدتها، بينما يحتاج الأسير إلى عدة أشهر من النضال الجماعي المتواصل، والمعاناة الصعبة بهدف الحصول على رغيف خبز أفضل، أو من أجل السماح له بمشاهدة فضائية عربية يرغب بمشاهدتها، ناهيك عن القضايا الكبرى التي يمكنك تخيل طبيعتها وشكل الصراع الذي يُخاض من أجل تحقيقها. وهكذا تتجاوز إرادة الأسير ثنائية السجن والسجنّ المعدّين لقهره ببلجونه إلى جسده كسلاح استراتيجي وحيد لخوض معاركه الحاسمة، لإعلان السيادة على زمن السجن: التمرد على قوانين السجن والتعرّض للتنكيل والضرب والعزل الانفرادي إعلان سيادة على زمن السجن؛ والإضراب المفتوح عن الطعام إعلان سيادة على زمن السجن؛ وتهريب هاتف خلوي بكل ما يترتّب على ذلك من عقوبات قاسية وجائرة في حال تمّ ضبطه

إعلان سيادة على زمن السجن؛ وتهريب نطفه أو نشر مقالة وخلافه مما يترك أثراً على معصميك وجسدك في العزل إعلان سيادة على زمن السجن... وعلى هذا المنوال تكثر تفاصيل إعلان السيادة على زمن السجن.

4

حين نفكر في ثنائية الزمان والمكان، نتيقن أن الاستعمار يسعى دوماً إلى تجميد الزمن في أعمار ضحاياه، ونحن الفلسطينيون لسنا استثناء، وإنما الاستثناء هو أن الاستعمار الصهيوني يسعى ولا يزال يسعى إلى تجميد الزمن الفلسطيني في الإنسان والمكان على حدٍ سواء لتحقيق معادلة التهويد والأسرلة. وإذا ما اعتمدنا الأسرى كنموذج، سنجد أن الاستعمار الصهيوني يعمل جاهداً على تجميد الزمن في أعمارنا بهدف تحويله وتحويلنا إلى عبء ثقيل على كاهل ذوينا وشعبنا وقضيتنا. ومن الفهم العميق لهذه النقطة بالذات، دأب العديد من الأسرى على الحفر بأقلامهم نفقاً فكرياً وأدبياً يحزّر عبره زمن السجن من قبضة الاحتلال، ويقدم للعالم زمن الصمود الفلسطيني بإعلان السيادة على الزمن كخطوة لا مفرّ منها للنجاح في تحقيق السيادة على الأرض. وما لم ندرك هذه الحيثية في طبيعة الصراع، ستبقى الإرادة مكبّلة بشروط سياسية تمنعنا من صناعة التاريخ، فتجعله يُملّي علينا حكايتنا العاطفية كضحاياه، فانتعاق الزمن المحتل لا يتجسّد إلا بالثورة، والثورة تحتاج إلى حركة تحرّر وطني حتى تقودها وتوجّهها، فما بالكم عندما يتشظى الزمن المحتل بين التنظيمات المتصارعة على وهم الزمن؟ الإنتاج الأدبي والثقافي داخل السجن هو انتصار الأسير لذاته، لشعبه وقضيته، بما يتضمّنه إعلان سيادته على الزمن المغتصب من عمره، تماماً كما هو حال النطف المحرّرة التي تعلن سيادتها على زمن السجن وانتصارها على مكانه المظلم مع صرخة كل وليد يُطلّ على هذه الحياة من رحم كل فدائية فلسطينية جعلت من رحمها قاعدة ثورية للانطلاق نحو مستقبل أفضل—كل وليد، أي كل مولود أنجب عبر النطف المحررة كما أنجب وليد دقة ابنته ميلاد من زوجته سناء سلامة. كيف لا، والسجن حيّّ ضيق جداً... تخيّل مثلاً أنك تعيش مع ما يقارب المئة وعشرين أسيراً في المكان ذاته الذي تقلّ مساحته أو تزيد قليلاً عن ثلاثمائة متر مربع، وتحتجز في الغرفة ذاتها لسنوات طويلة مع خمسة أسرى آخرين بالحدّ الأدنى، داخل مستطيل مساحته سبعة أمتار طوياً، وثلاثة أمتار عرضاً، هو مجازاً كلّ بيتك (فيه غرفة النوم، والمطبخ وأدواته، ومائدة الطعام، وغرفة الجلوس، ودورة المياه، والشاور، والكراسي والطاولات، ومقننات كل قاطنيه، والخزائن، والمغسلة، وسلّة النفايات، ومنشر الغسيل...). أي أن حيّزك الخاص لا يتجاوز 2 متر مربع، وعليك أن تقوم بكل نشاطاتك الحياتية، والاجتماعية، والإنسانية، والتنظيمية في هذا الحيّز دون أن تؤثر على حيّز الآخرين. أن تنجح في ذلك، وتستطيع تجاوز كلّ أشكال التناقضات، والأزمات المحتمل حدوثها بين البشر أصحاب الرغبات المختلفة والمتناقضة، خاصة عندما يحشرون في مكان ضيق كهذا، باللجوء إلى مفهوم القواسم المشتركة، والتسويات الداخلية... يُعدّ انتصاراً على المكان المصمّم لهزيمتك حتى وإن بقيت الغلبة فيه لصالح السجن، فلو ألقى عليك قنبلة غاز مسيّل للدموع، لشلّ حركة كل من في الغرفة. ولذا، فإن تجسّد الانتصار الأكثر نضوجاً لدى الأسرى إنما هو في توظيف الزمن لصالحهم من خلال إعلان السيادة عليه وإفراغه من هيمنة السجّان بالتمرد والمواجهة الدائمة، إذ على الرغم من الثمن الجسدي والإيذاء الذي يتعرّضون له، إلا أنهم يشعرون بنشوة الحرية.

5

للزمن السالب والزمن الموجب معنى خاص لدى الأسير، ويمكننا تشبيه حياة الأسير بسالب الصورة (Negative)، بينما الحياة في خارج السجن هي الصورة الكاملة الواضحة. صحيح أن سالب الصورة يحتوي على كل مزايا الصورة وصفاتها فيما لو تمّ تبييضه (أي تحريره)، غير أن سالب الصورة ليس الصورة ذاتها وهو في حالته السالبة. ومع ذلك، فأنت في السجن لا تبقى كما أنت، تتدخل كل عوامل الزمن فيزيائياً في تغييرك، وتكبر في السن، وتشيب، وتهرم، وتعيش فقدان والخذلان والعجز والنسيان والوجع والألم... كل شيء يمرُّ عليك مضاعفاً، من غير أن يكون لك حياة، أو أن تكون جزءاً من حياة، أنت حيٌّ وميت في الوقت نفسه، لأن الإحساس بالزمن عندك كإنسان يتوقّف باستثناء الجانب البيولوجي والسيكولوجي فيه. وحتى تتجاوز هذه الثنائية القاتلة في الفاصل الزمني الذي أُلقيت في أتونه عليك أن تبتكر وتخترع وتبتدع وسائلك الاستثنائية الإرادية الخاصة، ومن بينها الانشغال بالثقافة والأدب، واستخدام خيالك بحكمة مع مواصلة مهمّتك في مقارعة السجّان على مدار الساعة حتى تحدّ من جموحه في استباحة حياتك وخصوصياتك. الاستباحة تمثّل المهمة الأساسية لوظيفته كسجّان، وتُبقيك محاصراً في صورتك السالبة كإنسان، لذلك تأتي ردّة فعل الأسير الطبيعية كونه خُراً من داخله للدفاع عن كرامته بالجوء إلى التمرد والمقاومة والنضال ضدّ قوانين السجن... وهذا الموقف هو الذي يُعبّر عن القطب الموجب في صورته المسلوقة.

6

إن بيئة السجن تضع الأسير في موقف صعب بين زمنين يعبران عن ثنائية الانتظار الدائم وإمكانية الاختيار الصحيح في ظلّ انعدام حرية الاختيار. فالأسير يعيش في داخل الانتظار (انتظار انتهاء التحقيق، وانتظار الحرية، وانتظار الحب، وانتظار الزواج، وانتظار الزيارة، وانتظار المحامي، وانتظار المحكمة، وانتظار البوسطة، وانتظار النقل، وانتظار التفتيش، وانتظار العدد، وانتظار الفورة، وانتظار وجبة الطعام، وانتظار الاستحمام، وانتظار دورة المياه، وانتظار زيارة الغرف، وانتظار نشرة الأخبار، وانتظار دوره في قراءة كتاب...)، وعلى حافة كل انتظار يجلس نقبضه في الاختيار. الانتظار يمدّد من زمن السجن، ويجعله أنشودة تلتفّ حول عنق الأسير، وحجر ثقيل على صدره، وإبرة تخز قلبه باستمرار. بينما الاختيار يشلّ قرارات الأسير في أغلب الأحيان، لأنه يصبح عاجزاً عن المفاضلة بين البدائل القليلة التي تصعب المفاضلة بينها، لكنه في نهاية المطاف مُجبّر على القيام بهذه المفاضلة، وإن لم يفعل فإنه سيسقط في حفرة العجز المُعدّة له سلفاً. وحتى يتجاوز الأسير هذه الثنائية ويتعد عن فقدان السيطرة على زمام أموره، لا بدّ من المواجهة المحصّنة معنوياً: بتكاتف مجموع الأسرى أولاً، وبمساندة ومحبة محيطه الأسري والاجتماعي ثانياً، ومن ثمّ الدعم المعنوي الكبير الذي يتلقّاه من قبل شعبه بما فيه من تنظيمات سياسية، ومؤسسات مجتمع مدني، ومؤسسات رسمية، ثالثاً.

7

إن من أكثر ما يحتاجه الأسير بعد أن يفقد حريته هو الحب، الحب بالمعنيين الواسع والضيق للكلمة. الحب هو الكفيل الوحيد لحماية الأسير من الانزلاق نحو الهاوية، وهو القادر على حماية إرادته من الانكسار. الحب هو رديف الحرية والذي يحل محلها ويمنحك القوة والقدرة على الصمود والتحدي. فوجود الأسير خلف القضبان هو تعبير عن حبه لوطنه وشعبه، ورجيع الحب الذي يمنحه شعبنا وذوونا وأحرار أمتنا والعالم للأسرى، الحب هو الذي مكّنهم طوال هذه السنوات من الاستمرار، والتمسك بالثوابت الوطنية، ومن مواصلة كفاحهم بإمكانياتهم المحدودة، وخير دليل على ذلك الأسيران كريم يونس ونائل البرغوثي، اللذان أمضيا أربعين عاماً أو يزيد خلف القضبان، ولا يزالان متمسكين بعدالة القضية والاستعداد للتضحية من أجل حرية فلسطين وشعبها... فالحرية حب، والحب حرية، وثنائيتهما تشكّل وجه المناضل الحقيقي. ولذا، فإن حياة الأسير المتمسك بثوابته الوطنية، وخطه الكفاحي، ورؤيته التضحية... تتحرر تدريجياً من رداء الماديات، وتتحوّر إلى مجموعة من القيم والمبادئ، فرجيع الحب الذي يتدفّق عليه من الخارج هو بمثابة الشرقة التي تحمي روحه وقيمته، وتصلّب من صموده، والتمكن من ضرب درع الحب هذا سيشكّل أضراراً بالغة تؤذي العمود الفقري للنضال الوطني الفلسطيني برمته.

8

في خضمّ هذا التفاعل الذي تتنازع فيه الرغبات، والحاجات الذاتية للأسير كإنسان، وبين إمكانية تنازله عنها لصالح القيم المشتركة، واحتراماً للهم الوطني العام وما تراكم لأجله من تضحيات، كان السجن ولا يزال وسيبقى يهدف إلى فصل المقاتل من أجل الحرية عن المجتمع، وإلى قطعه عن كلّ ما يشكل وجوده كإنسان، وعن كل اللحظات السعيدة والحزينة التي كان يمكن له أن يعيشها مع أسرته الصغيرة: الخطوة الأولى لابنه، والابتسامة الأولى لابنته، واليوم الأول لهما في المدرسة، وخوفه عليهما من ارتفاع درجة الحرارة، والهرع إلى أقرب عيادة أو مستوصف طبي للاطمئنان على سلامتهما... والتفاصيل كثيرة ولا يمكن أن تنتهي ما دامت الحياة مستمرة. لجأ الأسرى إلى القراءة والثقافة والأدب والتعليم بهدف خلق التواصل البديل بينهم وبين المجتمع الذي انقطعوا عنه بالإكراه. والمعطيات التاريخية والراهنة تشير إلى أن الأسرى الفلسطينيين قد تمكّنوا من الانتصار على آليات القطع التي طوّرها الاحتلال عبر تطويرهم آليات التواصل التي شكّل أدب السجن بأجناسه المختلفة أحد أهم أركانها.

9

إن أصعب محطات الأسير خلف القضبان هو المرض، كل شيء آخر مقدور عليه (التحقيق، والعزل، والقمع، والضرب، والحرمان من الزيارة....)، كل شيء باستثناء المرض، لأنه يعبر عن قمة الشعور بالعجز، عجز الإنسان

عن خدمة نفسه بنفسه، على الرغم من الرعاية التي يتلقاها من بقية زملائه في الأسر، وانشغال تفكيره بمصيره المجهول. في مرحلة التحقيق يتم استخدام المرض للضغط على الأسير، وابتزازه لانتزاع اعترافاته، وفي داخل السجن يتم استخدام المرض كعقوبة باللجوء إلى الإهمال الطبي، والمماطلة في العلاج لكسر إرادة الأسير من ناحية، والتأثير السلبي على نفسية محيطه الاعتقالي من ناحية ثانية، وإرباك الأهل وتوتيرهم الدائم من ناحية ثالثة. هنا يتجاوز السجن كعادته كل المعايير الإنسانية والأخلاقية، حيث يستخدم الطب كسلاح وليس كمهنة إنسانية للعلاج، فيتم انتهاك شرف المهنة من قبل حاملها لكسر إرادة الإنسان، وتحطيم روحه، تماماً كما يستخدم علم النفس في أقبية التحقيق، وفي السجن كوسيلة لتعذيب الأسير وقهره. عند هذه المحطة في حياة الأسير، يتطلب منه الأمر مواجهة مصيره بشجاعة نادرة، وينبغي عليه تجاوز هذه المحنة بمزيد من الصلابة والإيمان. ففيها تتداخل كل الأزمنة المتشظية دفعة واحدة، ويتحول دماغه إلى ميدان قتال ضروس، تدار فيه كل أشكال المعارك التي يصعب الانتصار فيها من دون التضامن والمساندة الداخلية والخارجية، حيث يستمد قوته من الاعتراف بنضاله وتضحياته الجسام، الاعتراف الذي يجعل من الموت قرباناً جميلاً على مذبج الحرية والاستقلال، أو يقدم له مصل الشفاء من سرطان الخذلان، وهكذا تتجسد ذروة التكامل فيما بين أبناء الشعب الواحد.

10

نحن نعيش في عصر السرعة، العصر الذي تفوق فيه الزمان على المكان، ومن لا يستطيع أن يصنع قاطرته الخاصة في قطار الزمن التقني، سيبقى تابعاً للأكثر قوة في هذا المجال حتى وإن تواجد في مكانه الخاص، فإنه سيتواجد فيه دون سيادة ودون كرامة. وما طوفان بعض الدول العربية في فلك التطبيع الصهيوني-أمريكي إلا خير دليل على هذا الاستنتاج، لأن العقل البدائي للرسميات العربية لا زال يطابق بين الماضي والحاضر بمسعى تبريره للسيطرة على الحكم والهيمنة على الشعب، بموجب مفهوم الحاكم والرعية، ومنطق الوراثية والتوريث الذي يلغي العقل لصالح الحاجات البيولوجية للإنسان دون غيرها. ليس المطلوب التنكر للماضي، وإنما يجب الانفصال عنه من أجل الانطلاق نحو الأمام، مع ضرورة الاستفادة منه، وتجديد الاتصال به بطرق ووسائل أكثر نجاعة تتواءم مع متطلبات العصر الذي نعيش فيه. وهنا بالذات يجب أن تُفَعَّل الثقافة معولها، ويجب أن يأخذ المثقف الثوري دوره الريادي. باختصار علينا أن نُحرِّر الزمن من هيمنة الماضي، ومن سطوة الاحتلال، وعلينا أن نحرر العقل من هيمنة الأيديولوجيا ومن سطوة المقدس، ففي تحريرهما تحرير للإرادة التي نحتاجها في عمليتي التحرير والبناء.

في داخل السجن، وانطلاقاً من إيمان الأسير بعدالة قضيته، تتصلّب إرادته في مواجهة السجّان بفعل كل المقوّمات الذاتية والمعنوية والمادية التي تمنحه الأمل بإمكانية إنجاز أهدافه، ولذلك نجده في هذا الوضع الاستثنائي القاهر قد تمكن من تجاوز قوانين منظومة السجن بكل مقوماتها النفسية والاجتماعية والمادية. فالسجن كأداة مصممة لقمع المقاومة الفلسطينية انطلاقاً من هزيمة الروح الفردية، قائم أساساً على تقييد الفكر بالخوف، وتكبيّل الإرادة بالعجز، وقهر الضمير بالخدلان، وقتل الحب بالحرمان. وبالمقارنة البسيطة بين ما يمتلكه الاستعمار الصهيوني من إمكانيات مادية وفكرية متنوعة، وظّفها في صناعة بيئة السجن وظروفه لتحطيم الأسير جسدياً ومعنوياً، وبين الإمكانيات المتواضعة المتوفّرة بحوزة الأسرى... نلاحظ انهيار النظرية العلمية أمام إرادة وسمود المقاتل الفلسطيني، صاحب الحق الشرعي بالمقاومة المشروعة بكل وسائلها، فالطرف الأضعف والأقل حظاً في ثنائية هذه المعادلة يتجاوز قدرات الطرف الأقوى والأوفر حظاً، بل وينتصر عليه بالإرادة والوحدة، غير أن الصراع سيبقى مفتوحاً حتى زوال الاحتلال، وتحقيق الغلبة عليه في كل ما يفرضه على الفلسطيني من ثنائيات